التعليم فى روسيا

— ١ —

لسنا نعرف عن البلاد الروسية حقيقة يمكن الركون إليها والاعتماد عليها ؛ فقد وقفت منها الصحف فى جميع أقطار العالم موقفاً مضطرباً متناقضاً ، بعضها يستحسن كل ما عرض عنه الانقلاب الروسى ويبالغ فى هذا الاستحسان ، والبعض الآخر يستهجنه ويسرف فى هذا الاستهجان ، وكلا الطرفين متهوس متهور يخدم مبدأ لا حقيقة ، وينتصر لرأى لا لواقع ؛ فليست بلاد (تولستوى) فردوساً أرضياً كما يصوره الفريق الأول ، وليست جحيماً مستعراً كما يصوره الفريق الثانى ، وإنما هى بلاد شهدت تطوراً ترك فيها ما يتركه عادة كل تطور فى التاريخ من حسنات وسيئات .

إلا أنا إذا كنا نجهل كل شىء عن البلاد الروسية من حيث أنظمتها السياسية والاقتصادية والقانونية ، فنحن أقل جهلا ببعض أنظمتها الاجتماعية ، ولا سيما العلمية منها والأدبية ؛ بل نحن نكاد نكون على يقين من أنا لا نجهل من أنظمتها التعليمية أمراً له أهمية كبيرة أو صغيرة ، لأنا نعتمد فى بحثنا هذا على مصادر نثق بها ونطمئن إليها .

— ٢ —

نعود إلى الماضى قليلا ، ونتقل لك جملة واحدة من حاشية مطولة ذيل بها اسكندر الثالث تقريراً رفعه إليه أحد وزرائه عن حالة الروسيين وحياتهم وهى : « والمصيبة أن الفلاحين يرسلون أولادهم إلى المدارس ! ! ! » . . .

وهذه المصيبة لم يدخر جهداً لدرئها ومقاومتها ، حتى إنه لم يتردد عن الايعاز إلى وزرائه بوجوب استئصال التعليم من القرى والأرياف . . .

وتكرر الأعوام ، وإذا رجل يخطب فى مئات الألوف من الروسيين قائلا : « نحن نفتقر إلى أشياء ثلاثة : إلى العلم أولا ، وإلى العلم ثانياً ، وإلى العلم مرة ثالثة !!! »

لقد جربت الأمة الروسية تطبيق « النظرية » الأولى ، فلم ترتح إلى النتائج التى صارت إليها البلاد فيما أعتقد ؛ ولهذا فانها لم تسمع تلك الخطبة ، حتى هبت تطلب العلم أولا وثانياً وثالثاً ورابعاً ... فأنشأت المدارس فى المدن وفى القرى ، وبثتها فى جميع أنحاء روسيا ،

وجهزتها بما تحتاج إليه من أدوات وأسباب ! وطفقت تسوق الأحداث والأطفال إليها عشرات عشرات ، وربما كانت تسوقهم مئات مئات !!!

ولعل أظهر ميزات هذا العهد ، أن الأمة الروسية لم تقصر العلم على طبقة من الطبقات ، كما فعل اسكندر الثالث ، بل عممته عليها جميعاً ، وحثت العمال وأبناء العمال على ارتياد مناهل العلم والتشبع بروحه ، فأظهروا جلداً تقصر عنه سائر الطبقات ، وأظهروا تفوقاً قد لا يتوفر عند غيرهم ، لسلامة أنسالهم من جهة ، ولاعتيادهم على الجد والمثابرة من جهة ثانية .

— ٣ —

وقد يكون فى بيان بعض الأرقام فائدة ، وقد تكون هذه الفائدة حقيقية لأنها تستند إلى سجلات رسمية يمكن مراجعتها عند اللزوم ؛ وأول مايلفت الأنظار ويدل على مبلغ العناية التى تصرفها روسيا لنشر العلم بين أبنائها ، أنها تخصص عشرين فى المائة من مجموع ميزانيتها لمصلحة المعارف ، وهذا المبلغ عظيم جداً ، إذا قيس بمثله عند كثير من الأمم الغربية ، ولاسيما تلك التى تقطن فى شرقى أوربا ، وحسبك أن تعلم أنها تصرف على التعليم الابتدائى وحده أربعة مليارات روبل ! ! !

وتفيد الاحصاءات الرسمية أنه كان فى روسيا عام ١٩١٤ زهاء ثمانية ملايين تلميذاً فقط وأنهم يربون اليوم على أربعة عشر مليوناً .

وهذا الفرق العظيم ناشىء بعضه عن ازدياد عدد المتعلمات بين الروسيات ، فقد كانت نسبة عدد المتعلمات ٢ ٪ عند ما وضعت الحروب الكونية أوزارها ، أما اليوم فقد أصبحت نسبة النساء غير المتعلمات لاتزيد على ٨ ٪ .

ومع أن هذا البون الشاسع ، يكاد لا يصدق ، فهو يعبر عن حقيقة تؤيدها الاحصاءات الدقيقة المنقولة عن السجلات الرسمية ، وربما كان صادقاً ذلك الكاتب الأوروبى الذى كتب بعد أن زار البلاد الروسية يقول : « هناك تشاهدون إلى جانب كل معمل مدرسة ، وهناك تستطيعون أن ترجموا إلى النساء فيما لانستطيع هنا أن نرجع فيه إلى غير الرجال ... »

ولا أذكر اسم هذا الكاتب ، كما لا أذكر جنسيته ، ولكنى أذكر قوله وأحفظ له هذه الجملة وليست هى الوحيدة من نوعها .

— ٤ —

وللتعليم فى روسيا قواعد منظمة ، لايجوز لمعهد أو لمعلم أن يحيد عنها قيد شعرة ، فهو يجد هذه الجهة مقيد إلى غير حد ، والتعليم فى اعتقادى لايثمر ولا يزهر إلا إذا كان حراً

مطلق الحرية . ومن أظهر هذه القيود وأثقلها أن المعلم لا يستطيع أن يقرر مذهباً علمياً يعتقد بصحته إذا لم تكن الحكومة قد أقرته ، وربما عرض المعلم نفسه لأشد العقوبات إذا هو لمح بشيء من ذلك أو عرض له بالبحث ولو كان بالنقد .

وتبذل روسيا جهدها لتجعل المدارس بدرجاتها الثلاث (الابتدائية والثانوية والعالية) فى متناول جميع الطبقات ، وتريد أن ترفق التعليم النظرى بالتطبيق العملى حتى يرسخ العلم فى الأذهان . ويكون للطالب فى المشاهدة بعض التسلية المفيدة ، وليس أفعل من المشاهدة فى نفس الطالب كما يقرر علماء البيداجوجيا .

ولا تقصر العلم على أبنائها فقط ، بل تفتح أبواب مدارسها على مصراعيها للأجانب أيضاً الذين يقطنون بلادها ، وتجيز التعليم بكل لغة ، خلافاً لما كان معروفاً عنها فى العهد السابق ، فإنها لم تكن تجيز التعليم بلغة غير اللغة الروسية . وهذا التسامح لم يك لينتظر من بلاد تحاول أن تجعل كل مافى روسيا روسياً ، كما تحاول اليوم تركيا أن تجعل كل مافيها تركياً ، مع الاحتفاظ بالفروق التى تميز المحاولة الأولى عن المحاولة الثانية . من حيث الطريقة وحرمة الحريات الشخصية والعامة والحدود . . .

— ٥ —

وربما كان من المستحسن أن نشير هنا إلى ظاهرة قوية ، تبدو فى أنظمة التعليم واضحة جلية ، فان الروسيين يعهدون بتربية الأحداث فى المدارس الابتدائية إلى رجال محنكين مال الشباب بهم عن طرقه ولوى عنهم أعنته ، وقد يروقك أن ترى معلمى المدارس الثانوية والعالية كلهم من الشبان الذين لم يتموا العقد الثالث من حياتهم ، وإنما يدرجون على أعتابه ويمرحون فى أيامه . وهذه نظرية طالما نصح بها المفكرون والفلاسفة ، وأحسنو بيان افوائدها فلم يصغ إليهم أحد خشية المخاطرة والمجازفة بمصالح الأمة الحيوية .

وما نعلمه عن روسيا لا يساعدنا على أن نحكم بهذا الصدد حكماً وجيهاً ، وربما كانت المدة التى جربت روسيا تطبيق هذه النظرية خلالها لم تصبح بعد من الطول ، بحيث يمكن الاستناد فى الحكم إليها ! وربما كنا نحتاج إلى ضعف هذه المدة ، وإلى ضعف هذا الضعف لنصل إلى اليوم الذى نستطيع فيه أن نحكم على هذه النظرية بالصلاح أو الفساد .

على أنا ، مع هذه التحفظات وبالاستناد إلى ما نعلمه عن أرقى البلاد الأوروبية ، نستطيع — منذ اليوم — أن نتنبأ عن نجاحها ! لأن تسليم زمام الأمور ، ولا سيما زمام التعليم ، إلى الشبان ، أمر يقره العقل ويؤيده المنطق ، لأن الشاب إذا نقصته خبرة الكهل أو العجوز فان لديه من النشاط والعزم والاقدام ما يعوضه الخبرة ويفوقها ، وما لا يمكن أن نرى ظلاله عند الكهل أو الشيخ .

— ٦ —

وأنت إذا دخلت مدرسة فى روسيا حسبت نفسك فى معمل ! إذ تجد فيها الآلات الميكانيكية على اختلافها ، وتجد الطلاب منهمكين فى إدارة بعضها والاشتغال بها تحت إرشاد الأساتذة وتدريبهم .

ويروقك أن تطلع على أساليب التعليم فيها ، فهى أحدث ما تعرفه منها ! وربما كان من الخير أن نذكر لك بعضها ولا سيما ما يتعلق بتعليم الجغرافيا والتاريخ ، فالجغرافيا درس ممتع لديهم ، وهو أكثر ما يكون لذة وإمتاعاً إذا قرن تدريسه النظرى بالتطبيقات العملية.

لنفرض أنهم يدرسون مصر الاقتصادية ، فان الطالب ليشاهد خريطة مصر الاقتصادية تغطى الجدار المقابل له من أوله إلى آخره ، ويرى فى كل بقعة جزءاً من المادة التى تكثر فيها ، فهو يبصر قطناً عادياً فى النواحى التى يكثر فيها القطن ، ويبصر بلحاً فى النواحى التى يكثر فيها البلح ، وهكذا يكتفى الطالب بالقاء نظره على الخريطة ليعرف ما تنتجه مصر ؛ وصورة كهذه لا تمحى بسهولة ولا تنسى بسرعة .

أما دروس التاريخ . فهى غير الدروس التى يتلقاها الطلاب فى جميع أقطار العالم ، لأن الروسيين لا يعيرون أقل أهمية أسماء الملوك والفاتحين ، وقد يمرون بها مر البرق الخاطف ، ولا يكترثون بالحروب وتفاصيلها ، وإنما همهم الأوحد أن يرسموا فى أذهان الطلاب صورة واضحة لمختلف التطورات التى طرأت على البشرية منذ فجر التاريخ حتى اليوم .

وهم يعنون عناية فائقة بالرياضة البدنية ، ويعيدون على طلابهم ، فى غير سأم ولا ملل ، العقل الصحيح فى الجسم الصحيح !!!

ولعل من الحق أن نعترف أن روسيا فى طليعة الأمم التى تعنى بالرياضة البدنية عناية عظيمة ، ولا تخلو مدرسة أو تكاد لا تخلو مدرسة من الآلات الجمناستيكية على اختلاف أنواعها وأجناسها .

— ٧ —

وأما سلطة المعلم فمحدودة من جميع جهاتها ، من حيث الدروس التى يلقيها ، والنظريات التى يلقنها ، والمذاهب التى يقررها ، والحوادث التى يرويها ، وسلطته محدودة أيضاً من حيث علاقاته مع الطلاب ، فهو مضطر لأن يأخذ تلاميذه بالرقة واللطف لا بالقسوة والعنف ؛ ولا حق له فى ضرب تلميذ ولا فى تأنيبه ، أيّاً كان ذنبه ، وإنما يعهد بذلك كله إلى مجلس يؤلفه الطلاب ، ويسمى « مجلس الطلاب » ؛ ولا يحق لمجلس المعلمين أو مجلس المعارف أن يقرر شيئاً يتعلق بالتعليم قبل أن يأخذ رأى مجلس الطلاب ، أو يستشير مندوبيه .

ولكل مدرسة مجلس يتألف من المعلمين وأولياء أمور التلاميذ، يجتمع فى أوقات معينة وظروف خاصة للتداول فى شؤون الطلاب وبيان ملاحظاتهم .

ولا يستطيع المعلم أن يعطى درساً جديداً ما لم يفهمه الصف كله ، ويحق لكل تلميذ أن يطلب من المعلم إعادة الدرس مرات ومرات حتى يهضمه تماماً ، ولا تتبع روسيا نظام الامتحانات لترفيع الطلاب ومنحهم الشهادات كما هو جار فى جميع أقطاب الدنيا ، وإنما يعهد إلى كل معلم بترفيع الطلاب الذين يراهم جديرين بذلك .

ولا يقبل الطلاب ضعيفو البنية فى المدارس العادية ، بل يرسلون إلى مدارس خاصة بنيت فى الضواحى ، بحيث يأخذ الطالب نصيبه من الشمس والهواء الطلق ، وأما الطلاب الكبار فانهم يتعلمون يوماً ويشتغلون يوماً ، ولهم نوادٍ عديدة تلقى فيها الخطب فى أوقات معينة ، وأيام مخصوصة ، ولهم جرائد تنطق بلسانهم وتدافع عنهم ، ولهم دور سينما لا يعرض فيها من (الأفلام) إلا ما يساعد المعلم على تربية أخلاقهم ، وكثيراً ما يستعين المعلمون بهذه الدور فى شرح دروسهم . ولا سيما دروس التاريخ وعلم وظائف الأعضاء وقسم من دروس الجغرافيا والطبيعيات .

— ٨ —

وليس فى روسيا مدارس للتخصص فى فرع من الفروع ، بالمعنى الذى نفهمه ، إلا فى المدارس العالية ، فهى إذاً تتبع فى برامج المدارس الابتدائية والثانوية النظام المتبع فى جميع أنحاء الكون ، وهو ذلك النظام الذى يريد أن يجعل الطلاب يلمون بكل العلوم دون التبحر فى واحد منها .

إلا أن هنالك فروقاً بينة فى التطبيق ، فبينما روسيا توجه أعظم عنايتها ، إن لم نقل كل عنايتها، إلى الطريقة العملية ، إذ بأوروبا بأسرها (إلا القليل) لا تعيرها إلا قسماً ضئيلاً من اهتمامها ، وهذا الفرق هو الذى يفسر لنا التفاوت الذى نجده بين عقلية الروسى وطريقة تفكيره ، وبين عقلية سائر الأمم الأوربية وطرق تفكيرها .

ويكاد الاهتمام يكون مقصوراً فى المدارس العالية على الطب والهندسة ، وليس لمعاهد الحقوق فى روسيا ذلك الشأن الذى نجده فى فرنسا أو ألمانيا مثلاً ، ولعل سبب ذلك نستطيع أن نتلمسه فى طبيعة الروسيين وهدفهم وطريقة فهمهم الحياة .

[حلب] ايزاك شموش